أتبتِ نقيةً ، وتذهبين نقية ، كقطرة الطَلّ على ورقةٍ من الورد ، تلمعُ بكرةً ، ولا تلبث ان تُستطار بخاراً

بين نوحات الثاكلات ، وترجيع الحمائم بالاسحار ، وبكاء السماء ، وابتسام الارض تضادٌ يغيظ الموجعَ . لا أشكو بثي فيكِ ؛ ولكني استبقيه لأعتصمَ منهُ ذوبَ الشجون ، ولأخاطبَ بهِ نفسي ناصحاً كلما غلبت عليها غفلات هذه الدار ، وكادت تكون لها فتنة . لا استطيع دفعاً لشيءٍ يسوقهُ المقدور ، ولكني وفيٌّ اضمن لكِ ألاَّ يلتام جرح يومك هذا

تزولين أنتِ وتبقى ذكراكِ . كذلك الحياة ، تزول الهيولى وتبقى الصوَر . . .

ولى الربيع يكن

الاغاني في الحروب

ذهب فريق من العلماء الى أنَّ منشأ اللغات الغناء . لأن الغناء في عرفهم هو صورة الخيال الواقعة تحت الحس ، أو استفاضة مما في النفس عند امتلائها . وفي تاريخ الاقدمين ان امفيون باني اسوار طيبة كان يدفع العمال الى العمل بجد ونشاط بالغناء والاناشيد ، ألا تراهم في مصر يفعلون ذلك حتى الآن ؟ وفي اساطير اليونان ان الشعب انتصر في معركة سلاميس باغاني سولون ، فنجى البلاد بعد سقوطها . وفي التوراة ان الاسرائيليين كانوا اذا خرجوا لحربٍ يسير مغنوهم أمامهم . وفي التاريخ الحديث ان الفرنساويين لما سمعوا انشودة «المرسيليز» سنة ١٧٩٢ ، وقد

اجتاح العدوُّ بلادهم ، وقبض على ناصية أرضهم ، تولتهم الحماسة ، وهزّتهم النخوة ، فألفوا صفوفهم الممزّقة ، وقوّتهم الضائعة ؛ فبرز ضعافهم أشداء ، وجبناؤهم شجعاناً ، ومتطوعتهم منتظمة ، فانتصروا

وفي وصايا بولس رسول النصرانية « رتلوا وغنوا » الصلاة . وفي الآيات القرآنية : « ورتلِ القرآن ترتيلاً » ، وفي التوراة نشيد الانا شيد ، وفي اخبار داود انه ما كان يزيل كربته اذا ذكر أمرُ شاوول الاّ الغناء

وفي اخبار السحرة والمرّافين انهُ ما استأثروا الالباب ولعبوا بالعقول إلا بعد ترويضها بالغناء . ويؤكد هوراس أنّ مصر تقدّمت غيرها من أُمم الأرض بالمدنية والحضارة ، لانها تقدّمت غيرها بالغناء . وفي اقوال أحد شعراء الفرنساويين :

(اذا تآخت الأصوات ، دنت القلوب من الوئام)

واذا اجتمع الناس لامرٍ ، لا تتفق عواطفهم ولا تتحد أميالهم الاّ اذا اتحدت اصواتهم بانشودةٍ واحدة

وكان الاطباء يداوون المرضى بالاغاني . وروى هوميروس وبلوتارك أن القدماء كانوا اذا جلسوا بعد الاكل والقصف يغنون فيفئأون من ثمولهم

ومن أقوال لوبز في الغناء انهُ في الكلام كاللون في الصور

ومن الاغاني ما يبكي ويرقق ، وهو لما كان من الشعر في الغزل والشوق الى الوطن والبكاء على الشباب والمراثي والزهد . ومنها ما يطرب ، وهو لما كان في نعت الشراب ، وذكر الندماء والمجالس والصبوح والدساكر ، ومنها ما يشوقُ وترتاح اليهِ النفس كصفة الازهار والاشجار

والمتنزهات والصيد ؛ ومنها ما يسرُّ ويُفرح ويحث على الكرم والجود ، وهو لما كان في المديح والفخر وصفة الملوك

ومنها ما يشجع وهو لما كان في الحرب وذكر الوقائع والغارات والاسرى والنصر والفوز والفخر

ولكل امة أغانيها وأناشيدها ، ومن هذه الاناشيد والاغاني تعرف عاداتها وأخلاقها وتاريخها وأطوارها . وتتوارث السلالات ذلك جيلاً بعد جيل ، وقرناً بعد قرن ، حتى ان نوتية المراكب في نيل مصر يغنون اليوم رعمسيس توارثاً وتقليداً بقولهم وهم يجذفون « يا رمسو يا رمسو » وفي سوريا يلقبون أغاني الحرب والقتال بالحوربة ، ويشقون منها فعل « حورب » كما انهم يلقبون أغاني الفرح بالهوبرة ويشقون منها فعل « هوبر » ولربما ورثوا هذه اللفظة من « هورا » الرومانية والأغريقية ، فضلاً عن « الحدو » الذي ينشدونهُ عند السير والمشي لا وراء القوافل والظعن فقط ، بل في كل سير سريع يتطلّب الحماسة والنشاط

وكان غزاة العرب الذين دوّخوا المشارق والمغارب اذا خرجوا لغزوةٍ أو لقتالٍ أو لحرب ، تغنوا باشعارهم الحماسية ، فيفور الدم في عروقهم وتهيج أعصابهم وتحمى نفوسهم ، ويدفعهم الفخر الى اتيان العجائب . وكانوا اذا اشتبك الأبطال بالقتال ، وكفوا عن التغني بالاشعار يوقفون نساءهم يغنينهم ، وفي يد الواحدة منهن مقرعة تضرب بها الفارين ، وفي يدها الاخرى قارورة ماء تسقي منها الجرحى . وهذه العادة لا تزال عادتهم في حروبهم وهي أيضاً من عادات الأرناؤوط وشعوب البلقان ، حتى قال

أحد الضباط الاوروبيين الذين شهدوا المعارك البلقانية ان الأناشيد والتغني بحكايات الأبطال كانت من أقوى العوامل في فوز البلقانيين . والشعوب السلافية تلقت هذهِ العادة عن الشعوب الشرقية الحربية كالعرب منذ أربعة قرون . والأغاني والأناشيد هي التي صانت قومية البلقانيين من الضياع وصانت لغاتهم من النسيان ؛ فهم منها حفظوا تاريخ اسلافهم ومجد اجدادهم واسماء أبطالهم

وقد تفرَّد في نظمها العميان اذ كانوا يطوفون القرى والدساكر ، وينشدون هذهِ الأناشيد على توقيع الرباب والقزلة . واذا ذكرنا نحن أشعار عنترة والمهلهل ، عرفنا كيف يكون تأثير هذه الأناشيد في نفوس الأمم وعصابات الشبان وطوائف الجند . وتاريخ الافرنج طافح بمثل ذلك بما رووهُ عن غيليوم تل والسيد ورولان

وفي حكايات الصربيين والبلغاريين حكاية بطلٍ من أبطالهم في القرن الخامس عشر يسمونهُ ماركو قره لجيفيتش ، كان يلبس جلد الذئب ، ويتسلَّح بخنجرٍ مرصع بالذهب والفضة ، ويركب جواداً يسمّى شاراتز ؛ ولهم فيهِ القصائد والأناشيد التي يحفظها كبارهم وصغارهم ، ويتغنون بها في البيوت والمنازل والأفراح والمآتم والحقول والمتنزهات ، حتى انهُ لا يوجد طفلٌ واحدٌ بلقاني لا يتمنى ان يكون ماركو . واليك ما يقولون عنه :

« اذا ضرب ماركو بسيفهِ ترك خصمهُ شفعاً بعد أن كان وتراً

« اذا طعن ماركو برمحهِ أطار خصمهُ الى ما فوق رأسهِ

« واذا دار ماركو دورتين فلّ الجيش بدورانه »

ومن قولهم فيه ، في تخليصه الاسرى :

« يا غابتي الخضراء ، ما أذبلكِ ،

ويا مروجي الزهراء ، ما أيبسكِ ،

اصابك الزمهرير فأيبسك ،

أم انقد فيك السعير فأحرقك ؟ »

فردت الغابة على ماركو بصوت خافت :

« يا بطلي المفدّى ، وأشجع بطل !

مرّ بي عربيٌّ أسود ،

وبيده سلاسل الاسر الثلاث :

في واحدة الفتيات ،

وفي الاخرى العرائس ،

وفي الثالثة الزوجات »

وفي قصيدة أُخرى تخاطب ماركو جدّته بهجر القتال الى الحرث والزرع ، فيصغي الى نصيحتها ويأخذ بزرع الحقل الى جانب الطريق ، الى ان يهبط محصلو الاعشار على الفلاحين فيسلبوهم أموالهم ومزارعهم فيترك ماركو المحراث الى السيف ويخلّص المال من سالبيه ، ثم يحمله الى اصحابهِ وهو يخاطب جدتهُ بقولهِ :

« انظري اني لحارث ،

لا الحقول ولا المزارع ،

بل طريق الملك والسلطان »

وروت احدى صحف بلغراد أنه أثناء معركة بريليب ضعف الصربيون وجبنوا وأخذوا بالتقهقر، فصاح ضابطٌ من ضباط الفرقة : « هناك مقام ماركو وهنا وطنه فاهربوا ، اهربوا الى جدار منزله » وبالقرب من محل القتال كان موطن ماركو على ما جاء في حكاياتهم . فارتدّت الفرقة الى الهجوم وقاتلت حتى انتصرت

ومن اناشيد الارنام :

« لن تصير تركية تلك الهضاب التي ينزلها الارناؤوط ،

فاناريوس حيٌّ يهزأ من الباشاوات ،

فما دام الثلجُ يكسو الاكام ،

وما دام زهرُ الربيع يكسو المروج ،

وما دامت الاودية تغصُّ بالماء ،

لا نخضع ولا نستكين ،

ولنجعل مغاور الذئب مساكننا ،

ولنترك العبيد يسكنون الدور محني الظهور »

وفي أغاني البلغاريين ان يوجانا الفتاة البلغارية رأت موكباً لكريمة الفتاة التركية ؛ فهجمت على خفر الموكب فمزّقتهُ ، وقالت لكريمة شعراً :

لم يبقَ الأَكِ يا كريمة

في المركبة المذهبة

فاخرجي رأسك الابيض

لأقطعه بحد الحسام »

ومنذ عشرين سنة ألّف ملك الجبل الاسود روايةً سماها «امبراطورة البلقان » ومن اشعاره فيها :

« فلتبقَ أرض البلقان ، أرضاً لشعبنا !

ولتخرج أرض البلقان ، حرّةً من قيد الغريب !

والاَّ فالموت للبلقان ، خيرٌ من الاستعباد ! »

وقس على ماذكر ما لم نذكر من قصائدهم وأشعارهم وأناشيدهم التي أثارت الحمية في رؤوسهم اثناء القتال ، وحفظت تاريخهم وجنسيتهم وأمالهم وشجاعتهم قبل الحرب ، بل أعدّت نفوسهم للثورات كما أعدّتها للنصر

ونحن العرب الشرقيين عندنا كثير من هذه الأناشيد والأشعار الملأى بهـا الأسفار . ولكنّ الأغاني في مجالسنا تُثبّط اليوم همنا ، وتضعف نفوسنا . فهي عبارة عن ندبٍ وبكاءٍ ونواح للوصال ، وذلّ في الليل وصَغار في النهار . فهل يريد المغنون والمنشدون والناظمون والسامعون ان يخرجوا من الذلة وضعف النفس الى الفخر والحماسة والمجد ؟

لقد آن لنا ان نعرف أنّا شعبٌ حيٌّ موجودٌ ذو تاريخ وأبطال وأقوال بل أفعال

* * *

وهذه الأغاني التي درج عليها المغنون العرب نُقلت عن مغني الخلفاء في بغداد ، بعد ان أخذهم الترف وتولاّهم النعيم ، وانصرفت نفوسهم

الى اللهو والزهو والخلاعة ، كالرومان في آخر عهدهم . فنقلها عنهم الحضر وسكان المدن . ولكنَّ أَهلَ البادية والجبال ظلُّوا على ما كان عليهِ آباؤهم ، ولا يزالون على ذلك حتى الآن في غنائهم وعيشتهم وتقاليدهم ونخارهم وشجاعتهم . فاذا أردنا العود الى مجدنا فلنعد الى صلب الشعب في بواديهِ وقفاره ، حيث نجد الكرَم والجود والشجاعة والحماسة والنبل والشرف والعزّة والانفة

داود بركات

الجامعة المصرية

« في خمس سنوات »

في اليوم الاخير من شهر سبتمبر سنة ١٩٠٦ نشر مصطفى بك كامل الغمراوي ، احد اعيان مديرية بني سويف ، دعوة على صفحات الجرائد المصرية سأل فيها سراة المصريين وأفاضلهم التعاون على انشاء مدرسة جامعة . وختم دعوته بقوله « انني اكتتب لهذا العمل الخطير بمبلغ ٥٠٠ جنيه »

ثم حضر الى العاصمة وخاطب بعض الافاضل وذوي الرأي في المسئلة فلقي منهم كل رعاية وانعطاف . وكان في طليعة منشطيه سعادة سعد باشا زغلول — وكان يومذاك مستشاراً في محكمة الاستئناف — فدعا الى منزله في حي المنيرة الراغبين في اتمام أمنية الغمراوي بك فاجتمعوا لأول مرة في الاسبوع الاول من شهر اكتوبر سنة ١٩٠٦